الفصل الرابع

مسلمون فى تاريخ المسيحيين المصريين

الفقيه الليث بن سعد يعزل والى مصر الذى أمر بهدم الكنائس

الليث بن سعد واحد من عظماء الفقهاء المسلمين على مر التاريخ. قال عنه الإمام الشافعى رضى الله عنه: «الليث أفقه من مالك» بل فضله البعض على مالك، فقد أورد ابن خلكان فى وفياته عن سعيد بن أبى أيوب قوله «لو أن مالكا والليث اجتمعا لكان مالك عند الليث أبكم ولباع الليث مالكا فى من يزيد[1]».

وأضاف ابن خلكان عن يحيى بن بكير أنه قال «مارأيت أفقه من الليث بن سعد، كان ثقة فى الحديث، نحوى اللسان، يحسن القرآن والنحو، ويحفظ الأحاديث الكثيرة، حسن المذاكرة رقيق الشعر فى المحاضرة، إلا أن أصحابه ضيعوه، لم يكتبوا عنه شيئا[2]».

ولد الإمام الليث فى قلقشندة (أو قرقشندة) من أعمال القليوبية الحالية، فى العصر الأموى، حوالى عام ٩٤ للهجرة، لكنه تألق فى

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان (تحقيق د. إحسان عباس) بيروت، بدون تاريخ، ج٤، ص ١٢٩ -١٣٠.

(٢) وفيات الأعيان: ج٤ - ص ١٢٩.

العصر العباسي، ووصل صيته لأسماع الخلفاء العباسيين فقربوه، وطلب منه أبو جعفر المنصور أن يكون واليا له فامتنع، فعرض عليه ولاية مصر، فلم يقبلها، واعتذر قائلا: «إني أضعف عن ذلك، إني رجل من الموالي».

فقال أبو جعفر: «ما بك ضعف معي، ولكن ضعّفتك نيتك في العمل معي».

وموقف الليث في رفض الولاية ليس غريبا، فقد كان كثيرون من أهل العلم يرفضون العمل في الدولة حتى لا يستخدمهم الخلفاء في ظلم الناس.

وكما ارتبط الليث بأبي جعفر ارتبط بهارون، وهناك قصة طريفة تتناقلها كتب التراث عن سبب العلاقة الطيبة بين الرجلين، فقد حدث خلاف بين هارون وزوجته زبيدة فقالت له في انفعالها إنه من أهل النار، فقال لها هارون: «أنت طالق إذا لم أكن من أهل الجنة» لكنه لم يلبث أن أفاق من غضبه، وأحس بالندم، وبدأ يفكر في وسيلة للخروج من هذا المأزق، لكن السبل ضاقت به، وعجز الفقهاء عن إيجاد مخرج له، وفي نهاية المطاف لجأ إلى الليث فقيه مصر، وحل الليث المشكلة ببساطة شديدة، إذ سأله: «هل تخاف مقام الله؟» قال: «طبعا أخاف مقام الله».

قال: «فلتقسم على ذلك» فأقسم الرشيد، حينئذ قال له: «فهي جنتان وليست جنة واحدة، لأنه سبحانه وتعالى يقول «ولمن خاف مقام ربه جنتان».

وكانت زبيدة تسمع الحديث من وراء ستار فصاحت فرحا، وحينئذ عرض عليه الرشيد أن يكون واليه على مصر لكن الفقيه الرافض للمناصب

رفض الولاية، واكتفى بأن طلب من الرشيد وزوجه أن يولياه إدارة أعمالهما في مصر فوافقا، وأعطياه الكثير مكافأة له، وبعد هذه الصداقة صارت كلمة الليث لا ترد عند الرشيد.

يقول الذهبي في العبر: «كان أمراء مصر لم يقضوا أمرا من دونه، وإذا خالفه أحد في شيء، كاتب فيه الخليفة، فيعزله».

في ظل هذا جاء إلى مصر عام ١٧٠ للهجرة والٍ جديد من قبل هارون الرشيد هو علي بن سليمان، وكان فيما يبدو رجلا متشددا وسوست له نفسه بهدم الكنائس التي بنيت بعد الإسلام. فسعى إليه المسيحيون المصريون كي يترك لهم كنائسهم فأبى، فعرضوا عليه خمسين ألف دينار فرفض، وأصر على الهدم، برغم أن الرجل كما وصفه ابن تغري بردي كان «عادلا فيه رفق بالرعية آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، ومنع في أيامه الملاهي والخمور» إلا أن هذا كله لم يمنع عنه الليث بن سعد، فقد كتب للخليفة هارون الرشيد بعزله لأنه هدم الكنائس، ولم يرد الرشيد كلمة الليث، لأنه يعرف قدره وعلمه، وقال: «مادام الليث قد عزله فهو معزول»، وأرسل لمصر واليا آخر هو موسى بن عيسى[1]، وما إن وصل حتى بدأ الحوار بينه وبين الليث، وقال الفقيه المستنير للوالي الجديد إنه لابد من إعادة بناء الكنائس، وانضم إلى الليث فقيه آخر من مشاهير الفقهاء المعاصرين له يسمى ابن لهيعة، وقالا للوالي موسى بن عيسى: «هي عمارة البلاد»، واحتجا بأن الكنائس التي بمصر

(١) أبو المحاسن بن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، ٢٠٠٨، ج٢، ص ٦٦.

لم تبن إلا فى الإســلام فى زمان الصحابة والتابعين. ووافق الوالى على ما قاله الليث وصاحبه. وأعاد بناء الكنائس. وبقى اسم الليث بن سعد على مر العصور رمزا للتســامح الدينى، وزاد من قيمته أنه فقيه مصرى مستنير.

أحمد بن طولون

أحمد بن طولون رجل تركى الأصل ولاه الخليفة المستعين حكم مصر ســنة خمس وخمســين ومائتين، وكانت مصر حين جاءهــا ابن طولون فى أســوأ حال، فاعتنى بها، واهتم بأحوالها، وأصلح جسورها، وبنى القناطـر وحفر الترع والخلجان فانصلح حــال البلاد والعباد فى عهده، وصارت مصر على يديه دولة مستقلة عن نفوذ الدولة العباسية.

تشــبع أحمد بن طولون بالروح المصرية البعيدة عن التعصب، وأحب المسيحيين فأحبوه، وروى البلوى فى كتابه «سيرة أحمد بن طولون» أكثر من قصة تبين إحســان هذا الحاكم للمسيحيين وإنصافهم، ومن ذلك أنه كان كثيرا ما يتردد على دير يسمى دير القصير (بفتح القاف) وهو الدير المعروف الآن بدير المعصرة بين طرة وحلوان. وكان يخلو لنفســه متفكرا فــى بعض القلالى (الصوامع المخصصة للعبــادة)، وربطته علاقة صداقة مــع أحد الرهبان يقــال له أندونه، وكان صاحــب الخراج يومئذ اسمه ابن مدبر، الذى قرر أن يجمع جزية الرؤوس من الرهبان، وكان الرهبان يتمتعون بالإعفاء من هذه الضريبة، فلما أصر ابن المدبر على جمعها شكا الرهبان لأحمد بن طولون من والى خراجه، فأمســك الرجل بورقة وكتب

فيهـا لابن المدبر يأمـره بإعفاء الرهبان من الجزية كمـا جرت العادة، ورفع ابن طولون ظلم عامله عن الرهبان[1].

ومن القصص التى رواها البلوى أيضا فى سيرة أحمد بن طولون قصة القائد المسـلم والراهب. فقد أرسـل ابن طولون أحد قادته لأحد البلدان الريفية لحمل مال وإصلاح حال، فلما أدى الرجل مهمته جاء إليه راهب ليوقـع عنده براهب آخر يختلف معـه، وادعى إن الراهب الآخر وجد كنزا عظيما وفاز به وحده دون أن يعطى أحدا منه شـيئا، فطمع القائد فى الكنز، وأرسـل من يحضر له الراهب المشكو فى حقه، وحين جاءه أرهبه وهدده وأخافه، فاضطر الراهب المظلوم أن يقدم للقائد خمسـمائة دينار ليفتدى نفسـه. وهو مبلغ عظيم بمقاييس ذاك الزمان. وإذا أردنا أن نعـرف قيمته رجعنا لابن إياس الذى يخبرنا بأن الدينار الواحد فى عصر ابن طولون كان يشترى عشرة أرادب قمح، أى أن المبلغ الذى دفعة الراهب كان يساوى ثمن خمسة آلاف أردب من القمح بسعر اليوم.

أصـاب الراهب الحـزن والكمد لمحنته التى مر بـه، ولما رأى أحد الأصدقـاء المخلصين حـال الراهب قال له: «لم تبكـى ولنا أمير عادل منصف؟ ادخل الفسطاط واكتب قصة (شكوى) فإذا ركب أحمد بن طولون فادفعها إليه، فإنه يأمر لما يقرؤها برد مالك عليك»، لكن الراهب تردد، فهـل يمكن أن ينصف ابـن طولون راهبا لا يعرفه على واحد من قادته؟ لكن الصديق ألح على الراهب حتى أقنعه بالفكرة، وأخيرا شـد الرحال

(١) البلوى: سيرة أحمد بن طولون (تحقيق محمد كرد على) القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٨.

إلى مدينة الفسطاط. ومضى إلى باب ابن طولون ينتظر خروجه، فرآه أحد الحجاب فسأله عن خبره فشرح له قصته. وكان الحاجب صديق القائد الذى يتظلم منه الراهب، فقال له: بينك وبينه شىء غير هذا؟.

قال: لا.

قال: فأنا أدفع لك الخمسمائة دينار فامض فى حفظ الله، والرجل صديق لى، وأنا أسترجعها منه أو أتركها له، وأصونه عن الوقيعة به».

ففرح الراهب وقال: «ما أطلب يا سيدى غير هذا».

فأحضر الحاجب خمسمائة دينار ودفعها إليه، فأخذها ومضى وهو لا يصدق.

كان أحمد بن طولون له عيون ترصد له كل ما يدور حوله، ورصدت عيونه ما جرى، فأحضر الحاجب وسأله عما جرى، فلم يستطع الحاجب أن يكذب على سيده لأنه يعلم أنه لا يكره شيئا من مساعديه قدر الكذب. يقول البلوى إن ابن طولون: «أحضر القائد واعتقله، وأنفذ الحاجب خلف الراهب إلى ضيعته حتى أحضره، فلما حضر جمع بينه وبين القائد، وسأله عن الحال كيف جرت، فخبره بما كان، فقال له أحمد بن طولون: «كان سبيلك ويلك أن تدعى عليه بثلاثة آلاف دينار، حتى آخذها لك منه، واجعل ذلك تأديبا له ولغيره».

ثم قال للحاجب: «والله لولا أنها مكرمة سارعت إليها، وجميل رغبت فيه، وقال الله عز وجل ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾[1]

---

(١) سورة الرحمن الآية ٦٠.

لعمرت بك المطبق (السجن) ولكن احذر أن تعاود مثلها، ولا تطوِ عنّا خبرا ولا سرا ولا قصة تُرفع[1]».

هكذا وقف الحاكم نفسه إلى جوار حق الراهب ضد قائده ليؤكد أن المسلمين والمسيحيين فى هذا البلد متساوون أمام العدالة، وليؤكد هذا النسيج المصرى المتين الذى استمر منذ دخول الإسلام حتى الآن.

الأميرة ست الملك نصيرة النصارى

ست الملك واحدة من أشهر النساء فى تاريخ مصر، وهى ابنة الخليفة العزيز بالله الفاطمى، والأخت الكبرى للحاكم بأمر الله.

ولدت ست الملك، أو ست الكل عام ٣٥٩ للهجرة بعد الفتح الفاطمى لمصر بعام واحد، وكانت أمها جارية مسيحية من المذهب الملكانى أحبها العزيز، وجعلها أم ولد، ولم تترك المرأة ديانتها، وكانت هذه السيدة صاحبة فضل على العلاقة بين العزيز بالله وبين المسيحيين، إذ عرف عهده تسامحا دينيا يجعله من العهود الذهبية للمسيحيين فى مصر، إلى حد أن البعض يرى أن المسيحيين فى عهده كانوا أكثر ثراء ونفوذا من الأغلبية المسلمة.

كان خالا ست الملك من أبرز رجال عصرهما برغم تمسكهما بالمسيحية، فقد كان أحدهما (أرسانيوس) بطركا للطائفة الملكانية بالإسكندرية، أما الآخر (أريسطيس) فكان بطريقا ببيت المقدس.

فى هذا الجو المفعم بالحب بين العزيز وامرأته، الفياض بالتسامح، عاشت ست الملك، فكانت مسلمة بحكم ديانة أبيها، محبة للمسيحيين بحكم ديانة أمها واعتزازها بخاليها.

(١) سيرة أحمد بن طولون: ص ٢٠٧.

ويشـهد المؤرخون للعزيز بتسامحه الشديد ولذلك ولى رجلا مسيحيا يسمى الوبرة وظيفة الحسبة، وكان منصور بن مقشر المسيحى هو طبيبه الخـاص، ويصـف المقريزى أنه حين تـولى نزل من قصـر العزيز بالله «وبين يديه الجنائب وبين يديه أسـطال الفضة وثلاثون شمعة موكبية، وشمع معنبر، فشق الشارع نهارا إلى الكنيسة» أما عيسى بن نسطوروس فقد تسـلم الوزارة وسـائر الدواوين سـنة أربع وثمانين وثلاثمائة وتسلم أيضـا «سـائر الدواويـن، ونظر فى جميعهـا، وأمر ونهـى، وخاطب سـائر الكتـاب عن العزيـز، وخاطبه سـائر الأولياء وكافـة الناس فى مهماتهم وتوقيعاتهم[1]».

وفى سـنة سـت وثلاثين وثلاثمائة احترق الأسـطول فكلف العزيز عيسى بن نسطوروس بإعادة إنشاء الأسطول.

ويذكـر ابن الأثير فى كتابه «الكامل» «أن العزيز كان يولى فى الوقت نفسـه رجلا يهوديا اسمه منشا أمر الشام فاعتز بهما النصارى واليهود، وآذو المسـلمين، فعمد أهل مصر وكتبوا قصة (شـكوى) وجعلوها فى يد صورة (تمثال) عملوها من قراطيس، فيها: «بالذى أعز اليهود بمنشـا، والنصارى بعيسى بن نسطوروس، وأذل المسلمين بك، إلا كشفت ظلامتى» وأقعـدوا تلك الصورة (التمثال) والرقعة بيدهـا، فلما رآها أمر بأخذها، فإذا الصورة من قراطيس، فعلم ما أريد بذلك»[2].

---

(١) المقريـزى: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا (تحقيق د.محمد حلمى محمد أحمد) القاهرة، ١٩٩٩، ج٢ ص ٢٨١ - ٢٨٣.

(٢) اتعاظ الحنفا: ج٢ ص ٢٩٧.

كانت الرقعة قاسية برغم كلماتها البسيطة، لذلك راجع العزيز ما يفعله الرجلان، وتبين أنهما استعانا بعدد كبير من النصارى واليهود، واستبعدا المسلمين. فأمر بالقبض عليهما، وراجع ثروتهما فوجد لدى عيسى بن نسطوروس وحده مئات الآلاف من الدنانير. فأخذ منه ثلاثمائة ألف دينار.

ومن الواضح أن ابن نسطوروس لم يكن فوق مستوى الشبهات، فالمؤرخ المسيحي الأنطاكي يرى أن ابن نسطوروس «رسم أيام نظره رسوما جائرة، وأحدث مكوسا زائدة على ما جرى الرسم بأخذه» بينما يقول man «وكان عيسى قاسي القلب مرابيا، خص نفسه بكل الأعمال المربحة، وزاد كثيرا من الضرائب»[1].

برغم هذا فإن ست الملك قررت أن تتدخل لصالح عيسى بن نسطوروس، لأنها تعلم أن لكل إنسان عيوبه، وطلبت من والدها إعادته لمنصبه بعد أن يشترط عليه شروطا معينة تعالج العيوب التي وقع فيها، ولازالت تقنع والدها بهذا حتى اقتنع، وأعاد عيسى بن نسطوروس. ولا شك أن العزيز كما وصفه المؤرخون كان يحب العفو ويستعمله، ولذا انصاع لرأي ابنته العاقلة التي لا تميز بين مسلم ومسيحي، وترى أن الوزير الكفء يستحق التقويم بدلا من البتر.

ولم تكتف ست الملك بهذا فحين مات والدها كان أخوها الحاكم بأمر الله طفلا، وتولت هي إدارة أمور الدولة، وفي ظلها استمر عيسى

(١) نقلا عن: د. إسلام شافعي: أهل الذمة في مصر، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٦٠.

بن نسطوروس فى منصبه، وتركت للنصارى حرية الاحتفال بالمناسبات الدينية فيذكر المقريزى فى أحداث عام ٣٨٨ للهجرة ما يأتى:

«فى المحرم كان غطاس النصارى فضربت الخيام والمضارب والأشرعة فى عدة مواضع من شاطىء النيل، ونصبت أسرَّة للرئيس فهد بن إبراهيم وأوقدت له الشموع والمشاعل، وحضر المغنون والملهون، وجلس مع أهله يشرب إلى أن جاء وقت الغطاس فغطس وانصرف».

وفى نفس العام يتم الاحتفال بعيد النوروز، وعيد الفصح، وفى هذا العيد خلع الحاكم على فهد بن إبراهيم خلعة حُملت إلى داره ومعها بغلتان بمركبيهما وألف دينار»[1].

لكن هذا كله يتغير بعد ذلك حين يستقل الحاكم بالحكم، ويصير العصر الحاكمى وبالا على الجميع، فقد حرم أكل الملوخية، والسمك الذى لا قشر له (مثل القراميط والثعابين) ومنع خروج النساء من البيوت، ومنع ذهابهن للحمامات، ومنع صناعة الأحذية النسائية، ومنع العمل نهارا وأمر بالعمل ليلا، وعاقب من خرج من بيته نهارا، وأمر بقتل الكلاب، وأمر بمنع العنب حتى لا يصنع الناس النبيذ، وأمر بسب أبى بكر وعمر على المنابر، وعاقب من وجد عنده كتابا من كتب الفقه السنى.

ومافعله بالمسلمين فعل مثله بالمسيحيين واليهود، فقد أمر بهدم الكنائس، ولبس ثياب معينة، وتعليق صلبان كبيرة الحجم فى رقابهم، وساءت حالهم إلى حد أن عددا كبيرا منهم ترك البلاد وهرب، أو تظاهر بالإسلام هربا من عسف الحاكم.

---

(١) اتعاظ الحنفا: ج٣ ص ١٧ - ١٨.

وفجـــأة يتراجــع الحاكم عــن هذا كلــه، ويترك للمســيحيين بناء الكنائس، ويعطي لمن تظاهروا بالإســلام حق الارتداد لدينهم، ولابد أن يسأل القارئ نفسه: ما الذى غير الحاكم كل هذا التغيير؟ ويقفز سؤال محــدد إلى الأذهان: هل يمكن أن تكون ســت الملــك قد لعبت دورا فى هذا التغيير؟

فى نظرى أن هذا وارد، برغم أن العلاقة بين ست الملك وأخيها بلغت درجة شديدة من السوء، لأن ست الملك كانت دائما تتابع أحوال الدولة، وعنــد اللــزوم لا تتردد فى التدخــل، بل إنها حين وجــدت أن الحاكم بلغ مداه، وأساء للرعية من مسلمين ومسيحيين لم تتردد فى تدبير قتله، وولــت ابنه الطفــل (الظاهر) بدلا منه، ومرة أخــرى صارت هى صاحبة الأمــر والنهى وتصريف الأمور، ويذكر المقريزى: «جمعت الســيدة عامة أهل مصر وخاطبتهم بالجميل والملاطفة، ووعدتهم حسن السيرة والمعاملة، وأمرتهم بذكر حوائجهم ومصالحهم فى كل وقت، والمطالعة بحيف (ظلم) إن لحقهم من عامل أو ناظر ليُفعل فى ذلك ما توجبه السياســة العادلة. وأطلقت للنساء الخروج من منازلهن والتصرف فى أمورهن[1]».

وأعادت ست الملك للمسيحيين حق الاحتفال بأعيادهم، فنراهم فى سنة خمس عشــرة وأربعمائة يحتفلون بعيد الفصح بمشاركة المسلمين احتفــالا صاخبــا. ولم تلبث أن توفيــت هذه الأميرة فى الخامســة والخمســين من عمرهــا (٤١٤ للهجرة) لكن دورهــا كان أبرز من أن

(١) اتعاظ الحنفا: ج٣ ص ١٢٦.

ينســاه التاريخ. وقد سجله مؤرخو الإسلام ومؤرخو الكنيسة مسجلين لجميل فعالها ودورها فى إشاعة التسامح بين أبناء الوطن الواحد.

السلطان الظاهر برقوق ومواقف لا تنسى

كان عصــر الظاهر برقوق مــن أغرب العصور التى مــرت بها مصر، فالخطــر المغولى قد ظهر فى آســيا، ويزحف حثيثا نحو بلاد الســلطنة المصرية الشــامية التى يحكمها المماليــك كما يحكمون بلاد الحجاز لكن الغريــب أن الظاهر برقــوق برغم ما يدور حولــه كان حريصا على إقرار العدل بين رعيته مسلمين ومسيحيين، وسنرى فيما يلى بعض مواقف هذا السلطان التى حفظها لنا التاريخ، لكن قبل ذلك لنتعرف من قرب إلى هذا السلطان الذى نتحدث عنه. قال عنه ابن إياس فى بدائع الزهور:

«وهو أول ملوك الجراكســة بالديار المصرية، وهو الخامس والعشرون مــن ملوك الترك وأولادهم بالديار المصريــة... ولى الملك فى يوم الأربعاء تاســع عشر شهر رمضان المعظم قدره ســنة أربع وثمانين وسبعمائة.... ولقبه شيخ الإسلام سراج الدين (البلقينى)، بالملك الظاهر، لأنه ولى الملك وقــت الظهر، وهو مأخوذ من الظهيرة، وقد ظهر أمر ســلطنته فى ذلك الوقت، فأشار بهذا اللقب له[1]».

وكانت الفتن فى هذا العصر لا تهدأ حتى إنه تم عزل هذا الســلطان عن سلطنته، لكنه لم يستسلم وعاد للسلطنة فى ربيع الأول سنة اثنتين

---

(١) محمد بن أحمد بن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور (تحقيق محمد مصطفى) القاهرة، ١٩٩٨، ج١ ق٢ ص ٣١٨.

وتسعين وسبعمائة. وبعد عام واحد من عودته، وفي ظل هذا الجو المضطرب، وقعت هذه الحادثة التى رواها المؤرخ ابن الفرات.

قرر أحد الأمراء المماليك أن يستغل السلطة والنفوذ على بعض المسيحيين. واختار قرية من قرى الجيزة هي الشوبك ليمارس تسلطه على أهلها.

اسم هذا الأمير؟

ناصر الدين بن أقبغا أص.

وظيفته؟

شاد الدواوين، أو المسؤول عن الدواوين.

راح ابن أقبغا يبتز النصارى، ويفرض عليهم الأموال بدون وجه حق، ومن لا يدفع فالويل له، ورجال الأمير جاهزون للضرب والتعذيب والاضطهاد. ولم يحتمل نصارى الشوبك ظلم هذا الجبار العتى، فقرروا اللجوء للسلطان برقوق، وما إن علم برقوق بالأمر وتأكد من صدق الشاكين حتى أمر بالقبض على الأمير ابن أقبغا. لم يجامله لأنه المسؤول عن الدواوين، ولم يخف من ارتباك أمور الدولة بسبب القبض عليه، بل كان حادا كالسيف.

بعد القبض على الأمير جاءوا به إلى السلطان. ولم يتردد السلطان في عقابه، وأمر به فضرب كما كان يضرب الناس، ثم أصدر قرارا أقسى على الأمير من الضرب والألم الجسدى، فقد صادر أمواله التى جمعها من الناس دون وجه حق وانطوت صفحة ظلم النصارى في الشوبك

وبقيت حقيقة تقول إن حكام المسلمين لم يترددوا فى عقاب المسؤولين المسلمين إذا ظلموا.

ولعله من الضرورى هنا أن نذكر أن الظلم لم يكن يقع على النصارى فقط، بل كان يقع مثله على إخوانهم المسلمين فمما يرويه ابن إياس فى أحداث عام ٧٩٧ للهجرة:

«وفى ربيع الأول، تزايد ظلم الوزير، وناظر الخاص، وصاروا يرمون الرمايات من البضائع على السوقة (التجار) بأغلى الأثمان، فخسروا فى ذلك نحو النصف[١]».

وفى أحداث عام ٧٩٨ للهجرة يقول:

«كانت هذه السنة صعبة، شديدة البأس على الناس، وقع فيها الفناء والغلاء،... وكثرة هجوم المناسر (اللصوص) فى الحارات، وقلة الأمن للناس[٢]».

أى أن الظلم كان عاما، والجميع كانوا يعانون من الأحوال السيئة.

وفى عصر برقوق أيضا نجد مسيحيا آخر يشكو من أحد نواب قاضى المالكية، اسمه على شمس الدين محمد بن الشهاب أحمد الدفرى، وأحضر السلطان المشكو فى حقه وهو قاض، وكان للقضاة شأن فى هذا العصر، ويكفى أن نعرف أن من بين قضاة العصر كان العلامة ابن خلدون، والمؤرخ العظيم المقريزى، لكن السلطان لا يعرف إلا أن هناك شكوى موجهة ضد الرجل، لذا أحضره، وعرض الشاكى

(١) بدائع الزهور: ج١ ق٣ ص ٤٧٣.
(٢) بدائع الزهور: ج ١ ق٣ ص ٤٨٣.

المسيحى شكواه، وتبين للسلطان أن الشاكى صاحب حق، لذا قرر أن يقتص له، وأمر ببطح نائب القاضى على الأرض، وضربه، وأمر بالقبض عليه حتى يخلص المسيحى من ظلمه[1]».

هذه مواقف حاكم مسلم أمن بأن مصر بلد للمسلمين والنصارى، وأن من حق النصارى أن يتمتعوا بالعدل مثل إخوانهم المسلمين، ومن جار عليهم يجب أن يلقى جزاءه.

السلطان المؤيد يأمر بإعادة بناء كنيسة الجيزة

نحن الآن فى بداية القرن التاسع الهجرى، بالتحديد فى عام ٨١٨ للهجرة، وحاكم مصر هو السلطان المؤيد شيخ المحمودى، ولنتعرف أولا إلى هذا السلطان، الذى كتب عنه ابن إياس فى كتابه بدائع الزهور فى وقائع الدهور يقول:

«هو الثامن والعشرون من ملوك الترك (المماليك) وأولادهم بالديار المصرية... بويع بالسلطنة بعد خلع الخليفة العباس، فى يوم الإثنين مستهل شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة.... فكان أول من بايعه من العلماء جلال الدين البلقينى... ثم قدمت إليه خلعة السلطنة وهى جبة سوداء بطرز زركش وعمامة سوداء، وتلقب بالملك المؤيد[2]».

وكانت هذه الفترة مشحونة بالمجاعات والحروب والمحن، وفى وسط هذه الفترات يزداد التشدد، ليس ضد أبناء الديانات الأخرى فقط

---

(١) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك (د. محمد مصطفى زيادة) القاهرة، ١٩٥٨، ج٢ ق٣ ص ٨٣٠.

(٢) بدائع الزهور: ج٢ ص٤.

بل ضد أبناء الدين الواحد، حتى إن ابن إياس يذكر لنا فى أحداث عام ٨١٨ للهجرة هذه الواقعة الغريبة:

«فى شهر رمضان وجد إنسان سكرانا، فقبض عليه وضرب الحد، ثم طيف به القاهرة، فلما وصل الصليبة، ثارت عليه جماعة من العوام فقتلوه وأحرقوه بالنار[1]».

إن حد الخمر فى الإسلام معروف، وليس فيه قتل ولا حرق ولا تشهير فى أرجاء المدن. لكن يبدو أن التشدد كان هو سيد الموقف.

فى ظل هذا الجو المحتقن قام المسيحيون فى الجيزة بتجديد كنيسة بالجانب الغربى من النيل، وبلغ الخبر أحد المتشددين ويدعى الشيخ سليم، فثار وجمع الجموع من المتعصبين أمثاله وذهبوا إلى الكنيسة فهدموها، ولجأ الإخوة المسيحيون للطرق الشرعية، فسعوا إلى السلطان، وشرحوا له الأمر، وبينوا له حقيقة ما حدث، وبينوا له أن الشيخ سليم هذا فعل ما فعله دون حكم قاض، ولا قرار من الحاكم المسئول، وقرر السلطان المؤيد إنصاف أبناء الوطن المسيحيين، فاستدعى الشيخ المتعصب، وعلى حد تعبير ابن حجر راوى قصتنا[2] فإن هذا الشيخ «أهين» فى حضرة السلطان. ثم أحال السلطان الأمر للقضاء، وللأسف لم يذكر لنا ابن حجر اسم القاضى الذى نظر فى الأمر، لكننا بالرجوع للمقريزى فى كتابه «السلوك لمعرفة دول الملوك»

(١) بدائع الزهور: ج٢ ص ٢٤.

(٢) ابن حجر العسقلانى: إنباء الغمر بأبناء العمر، بيروت، ١٩٨٦، ج٧ ص١٩١ - ١٩٢.

نعرف أن القضاة الذين كانوا يشغلون منصب قاضى قضاة فى المذاهب الأربعة هم:

- قاضى قضاة الشافعية: شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن بن البلقينى.
- قاضى قضاة الحنفية: ناصر الدين محمد بن عمر بن العديم.
- قاضى قضاة المالكية: جمال الدين عبد الله بن مقداد بن إسماعيل الأقفهسى.
- قاضى قضاة الحنابلة: مجد الدين سالم بن سالم المقدسى[1].

وفى رأيى أن القاضى المرجح قيامه بهذه المهمة هو قاضى قضاة الشافعية ابن البلقينى، لأن قضاة الشافعية كانت لهم الصدارة بين بقية القضاة. المهم أن القاضى أذن للمسيحيين فى إعادة بناء ما تهدم. ويقول ابن حجر إن المسيحيين أعادوا البناء وشيدوا ما شاءوا».

هذه هى الروح المصرية المعتدلة القادرة وسط جو التشدد العام أن تعيد الحق لأصحابه، وتنصف أبناء الوطن مسلمين ومسيحيين.

الشيخ الباقورى التسامح فى صورة إنسان

ولد الشيخ الباقورى عام ١٩٠٧، أو عام ١٩٠٩، كما يروى أصدقاؤه وتلاميذه. وحين بدأ يدرك ما حوله كانت ثورة ١٩١٩ تملأ الدنيا وتشغل الناس، وكان من الطبيعى أن يتأثر الشيخ بالثورة. وبأهم مبادئها، وهو «الدين لله والوطن للجميع».

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك: ج٤ ق ١ ص ٢٩٨.

ويفهم من كتابات الشيخ الباقورى أنه عاش الوحدة الوطنية منذ طفولته فى قرية باقور، من قرى محافظة أسيوط. ويروى لنا كيف كان يسكن البيت المجاور لبيتهم فى القرية أسرة مسيحية. وكيف كان أبناء البيتين يلعبون معا ويأكلون من خبز واحد ويشربون من ماء نيل واحد، ولا ينسى أنه كانت لهم جارة مسيحية تسمى دميانة تعود أن يناديها بـ «ستى دميانة»، لأنها كانت صديقة جدته (سته)، وفى مثل عمرها، وتعامله بعطف وحب مثل جدته تماما.

ولم تقف المسألة عند حد القرية التى يسكنها، بل كانت تمتد لتشمل القرى المجاورة، وهذا يتضح مما كتبه عنه الأستاذ لمعى المطيعى، ابن قرية المطيعة المجاورة لباقور، حين يقول فى موسوعته «هذا الرجل من مصر»:

«قريتى تجاور قريته بيوتا وحقولا، هما قرية واحدة فى واقع الحال وليستا قريتين. نصف ساعة على الأقدام ويكون المرء فى بيت له فيه نسب وقرابة هنا وهناك.. الأسرة الواحدة بعضها من هناك وبعضها من هنا، فاتصلت الأنساب وتداخلت البيوت والحقول بالميراث. وتشابكت الأصول والفروع[1]».

ويروى لمعى المطيعى فى حب صادق كيف استمرت هذه الصداقة، فيذكر أنه بعد أن تقدم العمر به وبصديقه أصاب صديقه الفالج. فكان يمشى مستندا على ذراع أحد الأشخاص. وحين رآه فى قاعة اللجنة المركزية سار إليه برفق حريصا على ألا يثير انفعاله نظرا لحالته الصحية

---

(١) لمعى المطيعى: هذا الرجل من مصر، القاهرة، ١٩٩٧، ص ١٧.

ووضع يده اليمنى على ذراع الشيخ برفق ودعا له بالصحة والعافية وطول العمر، وحينئذ تهللت أسارير وجه الباقورى وابتسمت شفتاه. وقال: «التحية هكذا لا تنفع» وأخلى ذراعه من كتف صاحبه الذى يستند إليه وضم لمعى المطيعى فى أخوة، أو فى أبوة صادقة. باعتبارهما بلديات وبينهما «عشرة» طويلة[1].

ولم يكن المطيعى وحده الذى يتحدث بحب عن تسامح الشيخ وبعده عن التعصب، فهاهو القمص بولس باسيلى يروى لنا فى مقال له بعنوان «الشيخ الباقورى عملاق العلم والدين» مواقف عديدة عن تسامحه. ومن ذلك مثلا هذا الحوار بين القمص والشيخ. قال القمص للشيخ: لو قدر لك يا فضيلة الشيخ أن تولد من أب اسمه جرجس أو مرقس، وأم اسمها مريم أو حنونة. فماذا كنت ستسمى؟

وأجاب الشيخ بسرعة: كنت سأدعى بولس باسيلى.

قال القمص: ولو قدر لى أن أولد من أب اسمه حسن أوحسين أو حتى حسانين، وأم اسمها زينب أو فاطمة أو خديجة فماذا كنت سأصبح؟

أجاب الشيخ: كنت ستصبح أحمد حسن الباقورى.

قال القمص: إذن لا فضل لك فى إسلامك، ولا فضل لى فى مسيحيتى «﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾»[2].

قال الشيخ الباقورى: صدق الله العظيم[3].

---

(١) هذا الرجل من مصر ص ١٨.

(٢) سورة هود الآية ١١٨.

(٣) القمص بولس باسيلى: الشيخ الباقورى عملاق العلم والدين (بحث ضمن كتاب: الشيخ الباقورى تاريخ وذكرى) أسيوط، بدون تاريخ، ص ٧٠ – ٨٧.

يروى القمص بولس باسيلى، والأب كريستيان راعى الكنيسة الكاثوليكية بمصر، قصة استضافة الباقورى أثناء رئاسته لجامعة الأزهر للكاردينال كوتيج رئيس أساقفة فيينا لإلقاء محاضرة فى الأزهر الشريف موضوعها «التوحيد»، وكان الكاردينال يحمل على يده الروب الكهنوتى، وقبل أن يدخل القاعة استأذن الباقورى فى ارتداء الروب، فقال له رحمة الله عليه: «بل تفعل يا أخى ولا ترتديه وحدك، بل اسمح لى أن أعينك على ارتدائه.

واندهش الكاردينال، وقال له: أنت متسامح كريم.

فأجاب فضيلته: إننى عندما أسمح لك بلبس زيك الكهنوتى وأعينك على ذلك، فليس هذا مخالفا لما ترشدنى إليه عقيدتى، وإنما أنا أقتدى بالرسول الكريم الذى جاءه وفد من نصارى الحبشة فأكرم وفادتهم، وأنزلهم فى المسجد مكرمين، وقام على خدمتهم بنفسه، ورفض أن ينوب عنه فى ذلك إنسان آخر[1]».

تلقى الشيخ الباقورى تعليما دينيا، وتدرج من كتاب القرية إلى معهد أسيوط الدينى، الذى تخرج منه ١٩٢٨، ثم التحق بالقسم العالى وحصل على العالمية النظامية ١٩٣٢، ثم حصل على شهادة التخصص فى البلاغة والأدب سنة ١٩٣٦.

كان خلال دراسته زعيما للطلبة، وحين اختلف الملك فؤاد سنة ١٩٣٥ مع الشيخ المراغى شيخ الأزهر وقف مع الشيخ، وقاد ثورة الطلاب

---

(١) البحث السابق، وبحث الأب كريستيان ظان نيسان: التوحيد والإخاء (ضمن الكتاب السابق) ص ١٢١ - ١٢٧.

ضـد الملـك، وعقابا له ولكل مؤيدى الشـيخ تم فصلهم جميعا، لكنه لم يلن، واسـتمر فى قيادة الثورة حتى تراجع الملك، وأعاد الشيخ لموقعه، مستجيبا لما نادى به من مطالب لم يكن الملك راضيا عنها، وأعاد الشيخ المراغى رحمه الله كل من فصلوا لأنهم أيدوه.

هذا هو الباقورى الثائر، وفى رحلة بحثه عن الإصلاح انضم للإخوان المسلمين باعتبارها حركة إصلاحية، ثم انضم لثورة يوليو أيضا باعتبارها محاولـة للإصلاح، واختاره جمـال عبد الناصر وزيرا، لكنه لم يكن من طبعه السكوت على الخطأ، وانتقد برغم وجوده فى السـلطة، وانتهى بـه الأمـر مطرودا من منصبـه مغضوبا عليـه، ولم يعد للحيـاة العامة إلا بعد حين، حيث تم تعيينه رئيسا لجامعة الأزهر.

ويهمنا هنا موقفان للشيخ الباقورى حين كان وزيرا للأوقاف..

بلغ الشيخ الباقورى أن كفرالشيخ ليس بها كنائس يتعبد فيها الإخوة المسـيحيون، ولمـا كان فى كفر الشـيخ أراض كثيرة للأوقـاف فقد قرر الشيخ أن يقوم بواجبه تجاه إخوانه فى الوطن، وخصص أرضا من أرض الأوقاف لكى يقيم المسيحيون عليها كنيسة لهم يذكرون فيها اسم الله.

الموقف الثانى أذكره بكلمات الشيخ نفسه:

«كنت قد عرفت أن فى المطرية شجرة، وأن هذه الشجرة مقدسة لأمر واحد هو أن السـيدة العذراء عليها سـلام الله، حين أسعدت هذا البلد بوليدها المبارك العظيم جلسـت فى ظل هذه الشـجرة، فأقمت مسـاكن شـعبية بالمطرية، وأمرت بصفتى وزيرا للأوقاف أن تقام اسـتراحة لمن

عسـاهم يجيئون من الغرب المسيحى الأمريكى أو الأوروبى ليزوروا هذه الشجرة تبركا بالسيد المسيح»[1].

هذا هو الشـيخ الباقورى. امتداد السلف الصالح من الفقهاء المسلمين العظمـاء الذين آمنـوا بأن الديـن لله والوطن للجميع. وسـعوا لتوطيد العلاقات بين أبناء الشعب الواحد من المسلمين والأقباط.

❑❑❑

(١) الشيخ الباقورى تاريخ وذكرى: ص ٨١ - ٨٢.